قصة قصيرة

جدار الشهادات

بقلم : أحمد محمد علي صوان
سورية

قطع غرفته ذهاباً وإيابًا مرات ومرات، ما بين مكتبه المكتظ بالكتب والتحف والمجلات وبين الجدار المكتظ بالشهادات، لعله يطرد الوقت القابع في هذه الغرفة، فلا باب البيت بات يطرق، ولا الهاتف يرن. قرر أخيرًا الجلوس على كرسي مكتبه، فخريف عمره لا يسمح له بأكثر من تلك الأشواط.

كتب متراكمة، أوراق متناثرة، رسائل من أصدقاء وشخصيات كانت عزيزة عليه، ومازالت كذلك، لكنها توقفت عن المراسلة والزيارة وانقطعت أخبار أصحابها. التفت بصدره المثقل بالهموم إلى جدار الشهادات المنتصب خلفه منذ زمن بعيد. شعر أنه لم يمسح الغبار عنها منذ مدة، أحضر نفاضة من ريش النعام، وبدأ ينفض الغبار عنها: إجازة في العلوم الطبيعية، ماجستير في العلوم الطبيعية، دكتوراه في العلوم الطبيعية. أنهى المهمة بمشقة، ثم حانت منه التفاتة إلى جدار آخر، كان مملوءًا بشهادات التقدير والشكر. ترك الغبار عليها، وهم بالعودة إلى كرسيه، لكنه لمح على الجدار الثالث في لوحة قوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ شعر كأنه يقرؤه أول مرة مع أنه طالما قرأه، وعمل به. عاد إلى التنقل من مكان إلى مكان. وحدة وغربة وصمت مطبق يخيم على الغرفة، لم يدر بخلده يومًا أن محطاته الأخيرة مقفرة وقاسية. شعر بوهن يسري بين جوانحه، فاستجاب له وعاد إلى كرسيه الأثير، وحمل رأسه المثقل بالوحدة بين كفيه الهرمتين، وصار يدعو ربه واستغرق في دعائه. كان التقاعد قد أوهن عظامه وكشف له أشياء غفل عنها دهرًا طويلاً..

في الغرفة أريكتان طويلتان كانتا ملتقى الأحبة وملاذ طلاب العلم وشداة المعرفة، هذه الغرفة لم تعرف الظلمة إلا قليلاً، فليلها كنهارها، ولم يكن يشعر بثقل الساعات التي كان يحييها مع جلسائه، فهو فارس الميدان، وكل ينهل من علمه ويلتقط من دره، ولم يكن يرعى حق نفسه ولا حق أسرته، فهؤلاء الرواد لهم عنده الأفضلية، وقد يستعين بكتاب أو باتصال هاتفي أحيانًا عندما كان أساتذته أحياء، هؤلاء الأساتذة الذين ما تركهم حتى توفاهم الله.

شعر بارتفاع في ضغطه، قام متثاقلاً، فتح الباب ونادى زوجته بصوت مخنوق:

- لا تتركيني، بت وحيداً.

هبت مذعورة، لقطت أنفاسها المتناثرة، ثم أخذت نفسًا عميقًا تستجمع به كلمات حية وقالت: كنت معك قبل هذه الشهادات، كنت معك عندما كنت لضيوفك في هذه الغرفة، هذه الغرفة ضرتي، وصبرت، فكيف لا أبقى معك وأنت الآن معي وحيداً؟!

انهمرت دمعتان على خديه المتجعدين، وجلس بهدوء على الأريكة بعيدًا عن كرسيه، وأشار إلى رفيقة عمره أن تجلس بجانبه. ■